

ح ٩

الإيضاحات المتعلقة بالمعنى الجملي لآية البسملة

٨- جمال البسملة وبراعة الافتتاح بها

الإيضاح الثامن: أن ابتداء السورة القرآنية بالبسملة هو بداية جميلة وبليغة ورائعة، ويعرف هذا الجمال في علوم الأدب والبلاغة بحسن الابتداء أو براعة الاستهلال.

ذلك أن بداية الكلام هو وجهه وواجهته والذي يمهد لباقيه ويظل عليه وينفذ في ذهن المخاطب وعقله وقلبه، ولذلك فإن من بلاغة المتكلم والكلام أن يبدأ الكلام بمعنى ملائم وأسلوب أخاذ.

ويمتاز القرآن الكريم في جملة عناصر بلاغته بحسن افتتاحه - من خلال أول سورة نزلت منه وهي سورة العلق كما بيناه في تفسيرها - كما يمتاز بحسن افتتاحه لكل سورة حسب اقتضاء المقام ومناسبة الغرض.

ويتمثل افتتاح السورة:

أولاً: في البسملة التي هي الآية الأولى حتى في غير الفاتحة.

وثانياً: فيما بعد البسملة، فإن البسملة حيث كانت أدباً تمهيدياً عاماً كان ما بعدها أيضاً من جملة ما ينظر إليه فيما افتتح به الكلام، ولذلك نجد في كثير من السور عناية

ملحوظة فيما بعد البسملة مثل سورة الحمد وسائر سور المحامد كالأنعام وسور المسبحات والسور التي تبدأ بالحروف المقطعة.

والحديث هنا عن البسملة، فللبسملة بلاغة مميزة وجمال خاص في مفتتح الكلام في السورة القرآنية.

وتنشأ بلاغة الافتتاح عن تضمينها التركيز على المعنى المناسب في طليعة الكلام، بما يكون إرهاباً ملائماً للغرض الكلي من الكلام.

والبسملة هي كذلك من عدة جهات، من جملتها:

١- التركيز على اسم الله تعالى من خلال كلمة الاسم وليس بذكر الله سبحانه فحسب، وهو تركيز ملائم في القرآن الكريم الناظر إلى تأكيد توحيد الله سبحانه، وحصر الألوهية فيه وإبطال ألوهية ما اتخذ شريكاً له، فجاء هذا التركيز أمراً ملائماً جداً في افتتاح الكلام.

٢- إضافة الاسم إلى لفظ الجلالة (الله)، وهذه اللفظة كانت تستبطن العظمة البالغة حتى في أوساط المشركين في العهد الجاهلي، لإذعانهم جميعاً بأنه سبحانه هو الخالق للكون والكائنات والإنسان كما قال سبحانه: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾^(١)، حتى أنهم اعتذروا عن عبادتهم للشركاء بقولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لَيَقَرَّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾^(٢)، فكان الله سبحانه - وهو إله إبراهيم (عليه السلام) - هو الإله الأعظم عندهم جميعاً.

(١) سورة لقمان: آية ٢٥.

(٢) سورة الزمر: آية ٣.

وازداد ما يحمله هذا اللفظ من معاني الجلال والعظمة من خلال النصوص القرآنية التي اهتمت بإبراز هذا الجلال والعظمة والتأكيد عليه.

٣- توصيف الله سبحانه بالرحمن الرحيم، وهو توصيف جاء مطابقاً لمقتضى الحال، إذ كان المقصود بالقرآن الكريم هداية الإنسان إلى الله سبحانه وتوحيده وتركه ما يتمسك به من الأسماء الزائفة التي اتخذها شركاء لله، وتوصيف الله سبحانه بالرحمة مما يساعد على هذه الغاية، لأنَّ اتخاذ شركاء لله سبحانه كان طلباً للعناية والرحمة منها بظن إعراض إله السماء عن الإنسان واحتقاره إياه، فتوصيف الله تعالى على وجه مؤكد بالرحمة يبدي استقبال الله سبحانه للإنسان وعنايته به ورأفته له ومودته إياه.

٤- إنَّ هذه الجملة مميزة في وزنها الجملي كما يجده أصحاب الذوق الأدبي الذين يشعرون بالأوزان وروعته، فهو وزن ملائم كجملة قصيرة، ولو زيد فيها: (اقرأ باسم الله..) أو: (.. الرحمن الرحيم الكريم) لاختل هذا الوزن، وكذلك لو نقصت كما لو حذفت كلمة (الله) أو (الرحمن) أو (الرحيم).

وكان ترك الزيادة في الجملة بذكر الفعل المقدر (اقرأ) اهتمام بالحفاظ على هذا الوزن بالرغم من وجود داعٍ إلى ذكر الفعل المقدر أي (اقرأ) في البسملة، وذلك أنَّ حذف فعل البسملة وإن كان رائجاً في الجاهلية إلاَّ أنَّه كان على وجه الإخبار، والفعل المقدر في البسملة فيما رجحناه بقرينة آية سورة العلق إنَّما هو على وجه الأمر، لكن يبدو أنَّه قد تم تدبير الاستغناء عن التصريح بهذا الفعل بالابتداء في أول سورة قرآنية - وهي سورة العلق - بالبسملة ثم تفسيرها على وجه التأكيد بإبراز فعل الأمر ليكون

ذلك قرينة عامة على تقدير فعل الأمر في البسملة في أول السور الباقية، فكان هذا تدبيراً بلاغياً ذكياً لتحويل الفعل المقدر في البسملة من الإخبار إلى الأمر^(١).

هذه بعض عناصر بلاغة البسملة وملاءمتها لمقتضى الحال، والتعويل في الشعور بالجمال البلاغي الفني إنما هو على الذوق الأدبي الذي يحصل بضرب من الاستعداد الذي ينمو بالأنس بالنصوص البليغة، ولكن يأتي التوصيف منبهاً وشارحاً لما يجده الإنسان بحسه الأولي على وجه وجداني مشهود، وربما يُحمد الشعور بالجمال الاعتياد على الشيء الجميل ويتنزل إلى مستوى الشعور الارتكازي بالانسجام، كما يقع ذلك في ما يجده الإنسان جميلاً من الأشياء الخارجية، ولكن يتحفز الشعور بالجمال لمن ملك الذوق بالمقارنة مع البدائل المحتملة والمقترحة.

(١) سيأتي مزيد بيان لذلك في إيضاح حول صيغة الفعل المقدر.